الاتجاه نحو التاريخ الفرعوني عند نجيب محفوظ

د. بلال أحمد زرغر*

اتجه نجيب محفوظ إلى الرواية التاريخية في بداية انتاجه الروائي، حيث إنه خطط لعمل أربعين رواية تاريخية تركز على البيئة الفرعونية لمصر القديمة بمراحلها المختلفة، فقد بدأ حياته الأدبية بثلاث روايات تاريخية، هي على الترتيب "عبث الاقدار" عام ١٩٣٩م، و "رادوبيس" عام ١٩٤٣م، و"كفاح طيبة" عام ١٩٤٤م، وشكلت هذه الروايات بداية الفنية الحقيقية للرواية التاريخية ذات الاتجاه الواقعي.

١. رواية عبث الأقدار

ترصد هذه الرواية فترة من أنصع فترات مصر الفرعونية وهي فترة بناء الهرم الأكبر في عهد الفرعون خوفو ملك مصر، حيث ظل هذا الهرم رمزاً للقوة المصرية والتحدي الشعبي الروحاني، يمتلك محفوظ رؤية تاريخية فلسفية، تمكنه من فلسفة التاريخ وأحداثه، لكنه كان مترددًا بين الفلسفة والفن، فقد نزع إلى الفلسفة في بداية حياته ثمّ بدأ يجنح نحو الفن القصصي والروائي، وقد بقي فترة يعيش حالة التردد، وموقفه في روايته الأولى "عبث الأقدار" حينما يتحدث عن الفن، وشبه الفنان بأنه صاحب شخصية ذات طبيعة أنثوية، يقول محفوظ في الحوار الدائر بين "ددف" والفنان "ناقا": أنت يا سيد نافا يتغلب عليك الوجدان كالنساء ... ثمّ قال: أنت رجل يا نافا، ولكنك رقيق النفس، حساس الوجدان، ألا تذكر أن "خني" قال مرة: أن الفنانين جنس بين

---

* الزميل ما بعد الدكتوراه، قسم اللغة العربية بجامعة كشمير

الرجال والنساء"[1]. وفي روايته الثانية رادو بيس يتحدث عن الفن بلسان الفيلسوف، فيرى أن الفن لعب خيال، ولا يكسب صاحبه إلّا اللذة، ويستغرق الكاتب وقتاً طويلا في طرح رأيه في هذا الموضوع داخل رواية (رادو بيس) يقول الفنان "هنفر": "فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها (الحياة) من قوة وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا، وما ساسوا؟! هباء في هباء، قد تكون القوة حماقة، والحكمة خطأ، والثروة غروراً، أمّا اللذة فهي لذة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك، فكل ما خلال الجمال باطل"[2]. ويرى طه وادي "أنها تنديد بالملوك واستبدادهم، وإشادة بأبناء الشعب"[3]، أمّا الناقد المتخصص في نجيب محفوظ عبد المحسن طه بدر فيرى أنها "لا تقدم كشفًا لتاريخ مصر الفرعونية، ولا رؤية جديدة لهذا التاريخ أو تفسيرا له، ولا يمكن أن نزعم لنفسها الحملة على الاستبداد أو التنديد به، وكل ما يمكن أن تزعمه وتدعيه أنها محاولة لتقليد الجانب السملي من روايات جورجي زيدان التاريخية، مستبدلة التاريخ الفرعوني بالتاريخ الإسلامي"[4]. وإن كانت الأهداف مختلفة بين زيدان ونجيب محفوظ، فجاءت الدوافع والمرجعيات مختلفة بينهما.

٢. تحليل فني للرواية:

تتشكل الرواية من خمس وثلاثين حركة ينظمها رابط واحد وتوجها قضية واحدة، هي قضية الصراع بين الإرادة الذاتية للفرد. وبين مصير القدر، ونلاحظ من عنوان الرواية أن الكاتب مسبقا يحمل فكرة انتصار القدر، فالقدر هو البطل الحقيقي للرواية، وقد حاول محفوظ أن يشكل أحداث روايته من خلال محورين متداخلين، ومكملين لبعضهما البعض، موصلان في النهاية إلى الهدف الّذي أراده الكاتب، تشكل المحور الأوّل أحداث حياة "ددف" ومرافقه منذ الولادة حتى تسلم عرش مصر، وتشكل المحور الثاني، أحداث قصة حب ربطت

بين "ددف" وابنة فرعون الأميرة (مري سي عنخ).[٥]

ولا يخفى على القارئ أن المصادفة القدرية تشكل الدعامة الأقوى في بناء الرواية، بل ندعي أن الرواية في معظمها تقوم على المصادفات الّتي تسير نحو النهارية المحتومة في انتصار القدر، فالتخطيط البنائي للرواية يحركه فكر الكاتب المسبق، فالصراع الروائي يدور حول القوة الفردية والقدر المحترم، فبعد اللقاء الصدفة بين الساحر وخوفو تأتي ولادة الطفل الموعود مصادفة، ثمّ ولادة ابن الخادمة المخلهة للكاهن في الوقت نفسه الّذي ولد فيه الطفل الموعود، كذلك مصادفة التقاء أم الطفل الهارب "زايا" مع مركب فرعون العائد، ومصادفة موت زود "زايا" الّتي جاءته مبشرة بالطفل، ومصادفة تفوق "ددف" في جميع المباريات، وتقريب ولي العهد له، ومصادفة رؤية "ددف" لصورة الفتاة الفلاحة الّتي تكشف عن ابنة فرعون ومصادفة مفاجأة الأسد لولي العهد، وتخليص "ددف" له من الموت المحقق، ومصادفة التقاء "ددف" مع أمه الحقيقية في سيناء ترى في النهاية أن الكاتب ينتقد نفسه بعد أن أصبح أكثر وعيا ونضوجا بقوله: "الآن أضحك على نفسي من أسلوب هذه الرواية، إذ إنني كنت متشبعا وقتها بأنماط من التعبيرات اللفظية الفخمة الّتي كنا نحفظها عن ظهر قلب، ولم أدرك وقتها ضرورة خضوع وسيلة التعبير لطبيعة موضوع الرواية الّذي أتناوله، فكان الموضوع فرعونيا". إننا نرى في هذه الرواية نوع من الخيال التاريخي كما نرى فيها استخدام الألفاظ العربية الجزلة الفصيحة من أوّل الرواية إلى آخرها، ومن ثمّ لازمها التنافر على طول الرواية".[٦]

٣. رواية رادوبيس

يتحدث فيها عن فترة قلقة في تاريخ مصر الفرعونية، ويقدم صور كفاح شعب عندما تستباح محرماته، ويهب ثائرًا ينتقم من ظالمه، ويقدم صورة

الفرعون العابث بمقدرات شعبه، ويعيش مع غانية تستأثر بكل أموال البلاد، يعد الناقد عبد المحسن طه بدر رواية رادوبيس خطوة جادة في الرواية التاريخية عند محفوظ.

تبدأ الرواية بمناسبة قومية جماهيرية، حيث يحدد الكاتب زمن وقوعها، "بذلك اليوم من شهر بشنس المنطوي في أثناء الزمان منذ الآف سنة، وفي عهد حكم الأسرة السادسة، الفترة الّتي شهدت انهيار الدولة القديمة، حيث تعاظم نفوذ الكهنة وضعف نفوذ السلطة المركزية"[٧]. لكن الكاتب أراد أن يظهر الصراع الدائر في نظام الحكم من خلاف هذا الاحتفال على لسان بعض الحضور الّذين لا دور لهم في أحداث الرواية، ثمّ يصف شخصية فرعون بمصر (مرنوع الثاني) فهو "شاب جميل لا نظير له في طوله الفارع، وحسنه الجاهر، عظيم البأس، شبابه من نوع جامح، وهو ذو أهواء عنيفة، يغرم بالحب، ويهوي الإسراف والبذخ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة، وأنه أقريب الشبه بجده "[٨]. فقد نراه في لوحة عجيبة متناقضة، أو في لوحتين متناقضتين قد تعكس طبيعة الأحداث القادمة في عمق النص، اللوحة الأولى: الفرعون ملك شجاع قوي، عظيم البأس جامح اللوحة. الثانية: الفرعون الملك العابث بأموال شعبة، عاشق محّب، ذو أهواء متعددة. كذلك يعرفنا الكاتب على الشخصية الّتي يحمل اسمها عنوان الرواية (رادو بيس) فهي: "ملكة النوفس والأهواء، هدف العشاق والمعجبين الّذين يستبقون إلى نيل عطفها واستدوار رحمتها، الحسناء الّتي يعرفها جميع مصر من حسنها وبهاجتها، ربة الجزيرة الّتي لا يمكن أن يعصي جمالها القهار قلب، رادو بيس الّتي يعشقها كبار القوم، وكان حبها أصبح فرضها على علية القوم وكأنه واجب وطني، الآلهة لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان، تعرف بالسياسة وتتذوق الفن"[٩]. وسرعان ما تشخص لنا الرواية الجانب الآخر لهذه الشخصية كما تصفها المرأة (شروبيل) "إنها لا تعشق أبدًا

ولم تذق الحب، وما هي إلّا راقصة، تربت في بؤر الفساد والمجون، ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية، وأجادت فن المساحيق لا حكمة عندها، تنفق عمرها في أغواء الرجال"[١٠]. تعيش شخصية رادو بيس في لوحتين مختلفتين: اللوحة الأولى: الحسناء صاحبة الحكمة والمعرفة، طاعتها واجب وطني، تعرف بالسياسة وبالقانون والفن، اللوحة الثانية: غاوية، لا حكمة عندها ولا علم، تشغل نفسها بإغواء الرجال، هاتان اللوحتان المتناقضتان لكل من فرعون مصر، والشخصية الثانية في الرواية رادو بيس، ترسمان الخط العام للرواية حيث تسير أحداث الرواية في خطين متوازيين منجمين مع هاتين اللوحتين لكل شخصية، وقد شكلت الحروب وما يلزمها من شجاعة وحكمة وخطاء، وكذلك شكل الحب والغرام خطاء آخر يتداخل معه ليدفع الأحداث بشكل يميز هذه الرواية عن سابقتها. ففي رواية (عبث الأقدار) وضعت قصة الحب لخدمة القضية الأساسية، وقصة الصراع بين فرعون والكهنة كانت في خدمة قصة الحب الأساسية. رأينا هذا مغايراً لرأي النقاد الّذين درسوا الرواية، حيث أجمعوا على أن الرواية تدور حول قضية الصراع بين السلطة الفرعونية وبين السلطة الدينية في الكهنة، والدافع وراء هذا التحليل أنهم ظنوا أن الكاتب أراد أن ينتقد الوضع السياسي والاجتماعي القائم في مصر حين كتابة الرواية.[١١] وقد خيل إليهم أن الكاتب أراد تتنبيه الملك فاروق الّذي يرمز إليه الملك (مرفوع الثاني) إلى ما يمكن أن ينبه الشعب في مصر ورجال الدين إلى حقه في الثورة على السلطة إذا خان الملك العهد والثقة والامانة.[١٢]

فالرواية ترتكز على أكثر من محور صراع، أهما محور صراع الحب، ثمّ صراع الفساد، فصراع الملك مع الكهنة، وهذه التركيبة قد شكلت حركة الرواية نحو الثورة ضد الحاكم، وهذا يؤكد جوهر الرواية، وغاياتها الفلسفية عند محفوظ، بحيث أن سطوة الحب تعادل سطوة القدر في تسيير حركة الإنسان

ومصيره، كما أراد الكاتب أن يؤكد فكرته في أن العاطفة البعيدة عن الحكمة والعقل تؤدي إلى الخراب، وهذه حقيقة أراد الكاتب تأكيدها من خلال أحداث الرواية.

شخصية فرعون مصر:

شكل الكاتب من خلال الروايتين عبث الاقدار و رادوبيس ذلك التحول الكبير في موقف شرائح المجتمع من الملك فرعون. فقد كان في عبث الأقدار على هيئة الملك المقدس المعبود، مصدر السعادة والخير والبركة والفرح، صاحب الجلالة والهيبة والحكمة حتى آخر لحظات احتضاره، فإننا نراه في رادو بيس قد فقد الهيبة والقدسية والجلالة، وأصبح بمثل الند للكهنة، ثمّ تحول إلى صورة الملك العابث المنصرف عن مسئولياته تجاه الوطن والشعب. المندفع وراء نزواته وأهوائه، ويصل إلى درجة من الرثاء والمهانة الّتي وصل إليها بقوله "أحقا أنا فرعون؟ وهل حقا أتمتع بشبابي وقوتي؟ فكيف إذن أريد ولا أستطيع نيل ما أريد؟ كيف تنظر عيناي أراضي مملكتي فيتصدى لي عبد ويقول: لن يكون هذا لك"[١٣]. وإلى درجة أن تهتف الجماهير باسم رئيس الوزراء على مسمع منه قال الفيلسوف "هوف" بهدوء لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته في حفرة فرعون. فقالت رادو بيس بلهجة دلت نبرتها على الغضب: ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهي الوقاحة ... لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد أني؟"[١٤].

ثمّ يصل الأمر إلى قتله بسهم ينهي حياة قديس مصر وحكيمها وصاحب جلالها هذا الموقف لم نشهده في عبث الأقار، لأن رادو بيس تمثل فترة انهيار حكم الأسرة القديمة، وزوال هيبة فرعون بعد سيطرة الكهنة على كل جزئيات الحياة "مولاي إن الكهنة منبثون في أقطار المملكة كالدم في الجسم منهم الولاة

والقضاة والكتاب والمربون، وسلطانهم على القلوب مبارك بين الأرباب"[١٥]. وهذا يدل على فساد الحكم الفرعوني في تلك المرحلة، وطغيان حكومة ظل لا تعبا بالملك وحاشيته بل لهم السيطرة شبه الكاملة على أراضي الدولة الزراعية وغيرها.

نهاية الرواية:

والملّخص نجد محفوظ في عبث الأقدار قد تأثر بالأدب اليوناني وخاصة مسرحية "أوديبوس ملكا" لسوفكليس بالإضافة إلى مؤثرات أخرى دينية، وعندما أهتم الكاتب بانتهار الحتمية القدرية على ذات الفرد البشرية، كما حدث لأود بيس والفرعون، فإنه لم يحجم عن إنهاء روايته بمأساة حزينة تمثلت بمقتل ولي العهد وبموت الملك، لكنه خفف من وطأة المأساة بتحقيق النبوءة وتسلم ددف عرش مصر كما وعدته الآلهة. أمّا في رادو بيس فالنهاية كانت مأساوية جماعية، وبذلك ضاحت المآسي التاريخية الكبرى الّتي نعرفها في الآداب العالمية مثل: أو دبيوس ملكا، وأنطوني وكليوبترا، وروميو وجولييت، وقيس وليلى، حيث أنهى محفوظ روايته بموت الملك بسهم رماء أحد الثوار، وموته بين أحفان معشوقته رادوبيس، وبانتحار القائد بعد اعترافه بالخيانة، وبانتحار رادو بيس يتناولها السم، نرى الحياة هنا ليست إلّا وهما وخداعًا تنسم مع مقدمات الرواية. تبقي هذه الرواية خطوة متقدمة لمحفوظ في عالم الرواية التاريخية، وفتح لغيره من الأدباء باب الرواية التاريخية الفنية في الأدب العربي الحديث.

المصادر والمراجع:

١. رواية عبث الاقدار، ط دار الملايين بمصر، ص: ١١٢
٢. طه وادي، مدخل إلى التاريخ الرواية المصرية، ص: ٨٧
٣. عبد المحسن طه بدر، ص: ١٥٣
٤. رواية رادو بيس، ط دار الملايين بمصر، ص: ٥٣

٥. أحمد هيكل، ص: ٢٦٥
٦. عبد المحسن طه بدر، ص: ١٥٢
٧. رادو بيس، ص: ٣٠
٨. نفسه مصدر، ص: ٨
٩. نفسه المصدر، ص: ١٠
١٠. نفس المصدر، ص: ١٧
١١. طه وادي: مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية، ص: ٨٨
١٢. عبد المحسن بدر، ص: ١٩٠
١٣. رادو بيس، ص: ٢١
١٤. نفس المرجع، ص: ٤٥
١٥. نفس المرجع، ص: ٢٤

***